

التَّوْحِيدُ

عناصر الموضوع

٩٦	مفهوم التوحيد
٩٧	الألفاظ ذات الصلة
٩٩	التوحيد حقيقة فطرية
١١٠	التوحيد أساس دعوة جميع الرسل
١١٤	الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد
١١٦	أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد
١٢٣	الأدلة القرآنية على صحة التوحيد

مفهوم التوحيد

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (و ح د) تدل على الانفراد^(١).

والتَّوْحِدُ: الانفراد^(٢).

و(أحد) اسم الله جل ثناؤه، لا يوصف شيء بالأحدية غيره؛ لأن أحدًا صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء، وليس كقولك: (الله واحد)، و(هذا شيء واحد)، لأنه لا يقال: شيء أحد^(٣).

والتوحيد: الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له^(٤).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني التوحيد بأنه: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة^(٥).

وعرفه السعدي بأنه: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال أو إفراده وحده بالعبادة^(٦).

ولم تأت مفردة (التوحيد) بهذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما استعمل القرآن الكريم جذرها (و ح د) في معانٍ أخرى، لا صلة لها بموضوع البحث.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٩٠/٦.

(٢) الصحاح، الجوهري ٥٤٧/٢.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ١٢٧/٥.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٤٧/٢.

(٥) التعريفات ص ٦٩.

(٦) القول السديد ص ٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)^(١)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه^(٢).

الصلة بين الشرك والتوحيد:

الشرك هو الظلم العظيم، ولا يغفره الله لصاحبه -إن مات عليه-؛ لأنه يناقض أصل التوحيد، ويخرج صاحبه عن الملة، ويحبط عمله ويخلّده في النار.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، ولحد الرجل في الدين: طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم^(٣).

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»^(٤).

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»^(٥).

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند

(١) تاج العروس، الزبيدي، ٢٧ / ٢٢٤.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥ / ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٧.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢ / ٢٨٥٠.

(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩ / ١٧٢.

الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة^(١).

الصلة بين الإلحاد والتوحيد:

العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالملحد انحرف عن التوحيد والدين القويم.

٢ العبادة:

العبادة لغة:

من الفعل عبد يعبد، عبادة وعبودية، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وُحِّده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه^(٢).

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»^(٣). وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»^(٤).

الصلة بين العبادة والتوحيد:

وعلاقة العبادة بالتوحيد علاقة واضحة، فالله جل وعلا هو المستحق للعبادة دون سواه، وتفريده جل وعلا بالعبادة على اختلاف صورها هو حقيقة التوحيد (توحيد الإلهية) وهو مضمون شهادة: لا إله إلا الله.

(١) انظر: التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١٤٤٨/٢.

(٣) التوقيف، ص ٢٣٤.

(٤) المفردات، ص ٣١٨.

سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته، إن هذه الغريزة الدينية المركوزة في داخل كل إنسان منذ بداية خلقه، هي البوصلة التي توجه قلبه وعقله إلى توحيد الله تعالى قبل أي دليل آخر^(٢).

والسنة النبوية أيضًا تؤكد ذلك: أن الله تعالى قد خلق الإنسان مؤمنًا بربه، متجهًا إليه بفطرته بالطاعة والعبادة، وأن غايته هي تحقيق العبودية والتوحيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)، وفي رواية: (على هذه الملة)، (فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)، وفي رواية: (ويشركانه)، (كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟!، حتى تكونوا أنتم تجدعونها) قالوا: يا رسول الله! أفرأيت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقراءوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]^(٣).

(٢) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٤٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم ١٣٥٨، ٩٤/٢، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٠٤٧/٤، ٢٦٥٨.

التوحيد حقيقة فطرية

القلوب مفطورة على حب خالقها وتاليه:

إن الإيمان بوجود الله جل وعلا والإيمان بوحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، له دلائله الكثيرة، وشواهد المتعددة، وفي مقدمة هذه الدلائل والشواهد (الفطرة)، إن التوحيد حقيقة فطرية قبل أن يكون معرفة نظرية جدلية، وإن أرق أساليب الإقناع وأبلغ أساليب الإذعان بأصول الإيمان: إحالة المخاطبين إلى فطرتهم وغرائزهم^(١)، وكذلك كان منهج القرآن الكريم في اعتماده دليل (الفطرة) في معالجة قضايا التوحيد.

لقد جاءت كلمة (الفطرة) بلفظها مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَفَقَدْ رَجَعْنَا إِلَى الْإِنسَانِ فَوَدَّ أَنْ يُشْكِلَ الْإِنسَانُ أَفْطَرَتِ اللَّهُ آلِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسر العلماء (الفطرة) بمعانٍ مختلفةٍ متقاربة، وأنسبها في هذا المقام أن المقصود بـ(الفطرة): هو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه، وبتوحيده^(١) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي ص ١٦٦.

فلم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (يسلمانه)؛ لأن الإسلام موافق للفطرة^(١).

بل هو الفطرة المركوزة في النفس الإنسانية، وهو الوضع الطبيعي لها، فلا يحتاج إذا لتأثير الأبوبين، أما باقي المذاهب الإلحادية فهي تغطي الفطرة، وتنكسها وتصادمها؛ لذلك فهي لا تأتي على النفس من داخلها، إنما تأتي بمؤثر خارجي^(٢).

ويضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك مثلاً محسوساً، وهو ولادة البهيمة سالمة من العيب، ثم يطرأ عليها العيب بعد ذلك بجناية الإنسان.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة».

ويقول كذلك: «فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك

التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة»^(٣).
وبما أن معرفة الله وتوحيده فطرة في النفوس؛ لذلك لما شك الأقوام المكذبون لرسولهم في الدعوة لتوحيد الله، استغرب الرسل هذا الشك فقالوا:
﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ؟﴾! [إبراهيم: ١٠].

الفطرة السليمة والعقل الصحيح ينطقان الإنسان بتوحيد الخالق:

والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم، وتنطق فطرتهم بالحق عندما تسأل، ويؤازر هذه الفطرة العقل الصحيح؛ إذ جعله الله تعالى نوراً للإنسان.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَحَرَأَشْمَسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقد أدرك الأعرابي بفطرته السليمة وعقله الصحيح أن هذه المخلوقات العظيمة، من أرض وسماء، وليل ونهار،

(٣) إغاثة اللفهان، ابن القيم ١/ ١٠٧.

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العزّ ١/ ٣٤.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

«والمقصود إذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسييحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها، فلأن يفطر على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى؛ لما ركب فيه من العقل والتمييز والفتنة»، إلى أن يقول: «وهذا الهدهد طير من الطيور، وفي نظرنا عديم العقل، يصبح كغيره من الطيور، قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد، وأعلمه بغير ذلك، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَرٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

هذا كله كلام الهدهد، كما اتفق على ذلك المفسرون^(٢).

منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد بتحريك الفطرة وإيقاظها:

وحيث إن القرآن الكريم يعتبر هذه القضية - قضية معرفة وجود الله والإيمان به وتوحيده - أمرًا فطريًا في النفوس البشرية السليمة، وحقيقة بديهية لا تحتاج إلى جدال أو نقاش، فكل إنسان عاقل يدرك بنفسه هذه الحقيقة، بما أودعه الله تعالى فيه من فطرة يحس بها، دون الحاجة إلى منهج إضافي يسلكه لمعرفة ربه خالقه ورازقه؛ لذلك

وشمس وقمر، وإنسان وحيوان، ونبات وكواكب، ورياح وسحاب، وغيرها، تدل على الخالق تبارك وتعالى، حيث قال: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير؟»^(١).

الفطرة تنطق بالحيوان والجمادات أيضًا بالتوحيد:

وهذه الغريزة الفطرية لم تكن مقتصرة على النفوس البشرية وحدها، بل حتى الطير والجمادات وغيرها، قد فطرها ربها وخالقها على تسييحه وتحميده وتنزيهه، نطقًا لا يفهمه إلا الذي أنطقها.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَتَى اللَّهُ مَسْجِدَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطُّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْلَةٍ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَتَى اللَّهُ مَسْجِدَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

فإنّ منهج القرآن الكريم ومسلكه في هذه القضية، البدء بالفطرة يوقظها، ويذكرها بما هو مغروس في أعماقها؛ ليجد أنها معترفة ومقرّة بوجود الخالق العظيم، وأنها في ذلك لا تحتاج إلى دليل.

والدلائل التي تحرّك هذه الفطرة، وتشير إلى وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، إنها تنبعث من كل شيء على وجه الأرض، بل ومن كل شيء في السماء، أضف إلى ذلك النظام البديع، والدقة المتناهية في صنع هذه المخلوقات، والترتيب في سيرها وحركتها، فيدرك الإنسان بعقله وبصيرته أنّ هذا النظام وذلك الإبداع، لا يمكن أن يحدث من غير محدث، أو يوجد من غير موجد؛ لأنّ تلك المخلوقات عاجزة عن إيجاد ذلك النظام الدقيق، والترتيب المحكم من تلقاء نفسها^(١).

قيمة التزام التوحيد والتدين الصحيح في إرواء الفطرة:

ولأن عقيدة التوحيد ليست غريبة عن الفطرة أو مغايرة لها، بل هي تلائم الفطرة وتنميها ولا تصادمها، فهي العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تشبع الجوعة الفطرية التي لا تشبعها النظم الفلسفية، ولا المذاهب الوثنية، ولا السلطان السياسي، ولا الثراء

المالي^(٢).

فمهما استعلنت المذاهب المادية الإلحادية وتزخرفت، ومهما تعددت الأفكار والنظريات، فلن تغني الأفراد والمجتمعات عن الدين الصحيح، ولن تستطيع أن تلبّي متطلبات الروح والجسد، بل كلما توغل الفرد فيها أيقن تمام اليقين أنها لا تمنحه أمناً، ولا تروي له ظمأ، وألا مهرب منها إلا إلى الدين الصحيح.

فالتدين الحق -الذي يعتمد على أفراد الله بالتوحيد، والتعبد له وفق ما شرع- هو عنصر ضروري للحياة؛ ليحقق المرء من خلاله عبوديته لله رب العالمين، ولتحصيل سعادته وسلامته من العطب والنصب والشقاء في الدارين، وهو ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا، وهو عنصر ضروري لتزكية الروح وتهذيب قوة الوجدان؛ إذ العواطف النبيلة تجد في الدين مجاًلاً ثراً، ومنهلاً لا ينفد معينه تدرك فيه غايتها^(٣).

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

(٣) الإسلام أصوله ومبادئه، محمد السحيم ٤٨/٢-٥٠.

(١) المصدر السابق ص ٣٣٦.

قال: (شيئاً) (٢).

والقرآن الكريم وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنه: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

وقد صَحَّ أيضًا أنَّ لكل إنسان قريناً من الجن، يأمره بالشر، ويحثه عليه، وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ رَبِّمَا أَطْفَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي صَعْلٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

وكما أمدَّ الله الإنسان بملكٍ يهديه ويؤيده، فإنه كذلك يمدُّه بشيطانٍ يوسوس له، ويزين له السوء، ويغريه بالمنكر، ويدعوه إلى الفتنة، يستوي في ذلك الأنبياء وغيرهم. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] (٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندي ليلاً، فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، -وفي رواية: فأدخلت يدي في شعره-، فقال: (ما لك يا عائشة، أغرت؟)، قلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: (أقد جاءك شيطانك؟)، قلت: يا رسول الله، أو معي

انحراف الفطرة وتشوُّهها بجناية الإنسان والشيطان:

وقد يقال هنا: لو كان التوجُّه إلى الله أمراً فطرياً حقاً، لما عبد النَّاسُ في مختلف العصور آلهةً شتى، فهذا واقعٌ مسلَّمٌ به يخالف المدَّعى.

والجواب: أنَّ الفطرة -كما سبق- تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنَّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف، ففيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وفيما يلقيه الكتاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة ما يبدِّل هذه الفطرة ويقذرُها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نؤثِّر في فطرته، هل يخرج موحدًا عارفاً بربه؟!، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يَدنسوا فطرهم، فإنَّ شياطين الجنِّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] (١).

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمْ شَرًّا) أو

(١) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم ٦٢١٩، ٤٨/٨، عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٣) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٣.

من حب للجنس، أو طمع في المال، أو حرص على المنصب، أو تطلع إلى الجاه، أو إثارة للاستبداد، أو ميل إلى الطغيان، بل إنه ليتسلط على المتدينين أنفسهم؛ ليزيدوا في شرع الله، أو ينقصوا منه؛ ليطوعوا الدين لأهوائهم، ويخضعوه لشهواتهم.

وهو الذي يغري العداوة والبغضاء بين الناس، فيفرق بين الأخ وأخيه، وبين الزوج والزوجة، وبين طوائف الأمة وجماعاتها، وهو الذي يوقد نيران الحروب بين الأمم والشعوب، وينفخ فيها لتهلك الحرث والنسل، وتأتي على الأخضر واليابس.

وكلما كان الشيطان أقدر على الشر، كان أقرب منزلة وأعلى قدرًا لدى رئيسه إبليس لعنه الله.

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة.. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت) (٢).

إن كل ما يعانيه الإنسان من فتن وويلات،

وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة) (١).

والشيطان هو الذي قام بدور رئيس في محاولة القضاء على دعوة الإسلام في أول صدام له مع أعدائه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ تَكَصَّ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وهذا الشيطان هو الذي يزين لكل فرد ما تهفو إليه نفسه، ويميل إليه هواه

(١) أخرجه أحمد، رقم ١٥٩٥٨، ٣١٥/٢٥، والنسائي في سننه الصغرى، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم ٣١٣٤، ٢١/٦.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١١٨٦/٦، ٢٩٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢١٦٧/٤، ٢٨١٣.

إنما هو من نتاج إبليس وجنوده الأشرار^(١). وعودٌ على بدءٍ، فلأجل كل هذا الانحراف الناشئ عن الدخائل المبيلة من جنایات الإنسان والشیطان في تلويث الفطرة، فقد جاء تمام الآية الكريمة في الفطرة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فكثيرٌ من الناس قد فقدوا الاعتقاد والمعرفة والإدراك لتلك الحقيقة العظيمة المرتبطة بحياة البشر ودينهم وأعمالهم^(٢).

المصائب قد تجلو الفطرة وتصحح مسارها:

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة المشوهة؛ فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها، عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَقَرِحُوا بِهَا جَلَّةَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ

الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]^(٣).

ومهما بلغ الإنسان في الطغيان والكفر والعناد، تبقى هذه الفطرة لا يستطيع القضاء عليها مهما كابر في ذلك، وتظل دلائلها تظهر وهو يشعر أو لا يشعر.

قال تعالى: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَفْنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وفرعون أجرم طاغية في البشر؛ أنكر وجود الله، ودعا الناس إلى عبادته، وهدد موسى عليه السلام إن اتخذ إلهاً غيره، قال له موسى عليه السلام كما قصّ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم كانت العاقبة أن قال فرعون وهو في أحضان الموج وقد أدركه الغرق: ﴿هَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]^(٤).

أقدمية التوحيد وأسبقيته على الشرك:

وإذا كان التوحيد حقيقةً فطريةً، فمن البدهي أن يكون الأصل في البشرية هو

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٠-١٤٣.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢.

(٣) حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي ص ٢٠٠.
(٤) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٧١.

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ [البقرة: ٢١٣].

وقد روى الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، قال: «وكذلك في قراءة عبد الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾»^(٢).

ويؤيد هذا التفسير لهذه الآية، الآية الأخرى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وعن قتادة قال: «ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك؛ فبعث الله عز وجل نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»^(٣).

وجمهور المفسرين يقولون بأن الناس كانوا أمة واحدة على الهدى والتوحيد، فظهر فيهم الشرك عن طريق تعظيم الموتى، فبعث الله إليهم رسوله؛ ليردوهم إلى التوحيد، قال

(٢) أخرجه الحاكم في مستدرکه، كتاب تواریخ المتقدمین من الأنبياء والمرسلین، ذکر نوح النبی صلی الله علیه وسلم، رقم ٤٠٠٩، ٥٩٦/٢.

وصححه الحاكم على شرط البخاري، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمين، ٢١٥/١.

التوحيد، وأن يكون الشرك انحرافاً طارفاً دخيلاً عليها، فالتوحيد له أقدميته وأسبقيته على الشرك، خلافاً لما تقول به بعض النظريات الضالة في تطور الأديان.

لقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم أن أبا البشرية الأول آدم عليه السلام وذريته كانوا على التوحيد، يتبعون منهجاً إلهياً منزلاً إليهم من ربهم تبارك وتعالى، فهم أول البشر، يدينون بالتوحيد الخالص، وبذلك يكون التوحيد سابقاً للشرك، وليس تطوراً عنه، ولم يعرف الشرك والانحراف إلا بعد قرون، حينما انحرف القوم عن دين الله وتوحيده، فبعث الله تعالى لهم نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]^(١).

بل لقد بين الله سبحانه أن البشرية كانت أول أمرها على التوحيد ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة في آية واضحة، وهي قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢١٧.

الطبري: «إن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به. وذلك أن الله -جل وعز- قال في السورة التي يذكر فيها (يونس): ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعد جل ذكره على الاختلاف، لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك»^(١).

ورجح ابن كثير أيضًا قول ابن عباس وقتادة معلقًا ترجيحه بقوله: «لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام؛ فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»، ويقول: «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن

الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام...، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان؛ فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة»^(٢).

ونقول أيضًا أنه لا عجب في ذلك ولا غرابة؛ لأن الإنسان كلما كان قريبًا من النبع، كان الماء أكثر صفاءً ونقاءً، وكلما ابتعد عن النبع، وجد الماء أقل صفاءً ونقاءً؛ لما يطرأ عليه من الأذى، وما يداخله من القذى، والشوائب التي تنصب فيه، وهكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد؛ لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع، وتضافرت العوامل التي أدت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئًا بعد ذلك التوحيد، وكان انحرافًا عنه^(٣).

تفنيد مزاعم تطور الأديان من الشرك إلى التوحيد:

يزعم بعض الباحثين الغربيين -ممن يسمون بعلماء مقارنة الأديان-، وكذلك مقلداتهم من الكتاب المسلمين بأن الشرك سابق على التوحيد، وأن عبادة الإله قد تطورت من جيل إلى جيل، حتى وصلت

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٥٧/٤.

(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضهيرية ص ٢٢٠.

-مثلاً- تبدأ بالواحد وتنتهي بما بعده من كثرة، وليس العكس^(٣).

أما استدلال القائلين بأسبقية الوثنية على التوحيد بآثار الحفريات التي زعموا بأنها تدل على أن الناس في بادئ الأمر قد تدينوا بالوثنية، ثم تطورت عباداتهم مع تطورهم الفكري، فإن ذلك ما هو إلا مجرد التخمينات والتخرصات الوهمية، والتي لا تقاوم القرآن الكريم، والسنة الثابتة.

ومن الممكن والمعقول جداً أن تكون تلك الآثار التي اكتشفوها قد وقعت لذرية آدم عليه السلام، وقد حدث الشرك الأول كما أشرنا في قوم نوح عليه السلام، والدليل متى تطرق إليه الاحتمال، فلا يصح أن يكون دليلاً يحتج به، فكيف وأدلتهم تصطدم بنصوص القرآن والسنة؟!^(٤).

إلى التوحيد الخالص، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي.

وقد اعتمد هؤلاء على نظرية التطور والارتقاء، حيث قاسوا التوحيد في حياة البشر على نمو وتطور العلوم والصناعات التي تنمو وتتطور بسبب الجهد البشري^(١).

وقد يظن بعض المسلمين أن في ذلك ترقياً للإنسان وتزكية للإسلام؛ لأنهم يزعمون أن البشرية لما كانت في حال من التأخر كانت تعبد آلهة متعددة، ولما ترقّت وتقدّمت أصبحت تعبد إلهاً واحداً؛ فنشأت ديانات التوحيد، يظنون ذلك ويدافعون عنه، وإننا لنأسف كل الأسف لانخداعهم بهذه الأفكار الغربية، وتبنيهم لتلك النظرية الملحدة^(٢).

ولا يخفى أن هذه الأباطيل فيها إنكار سافر لكل ما سبق من الوحي السماوي والسنة النبوية، علاوة على منافاتها للفطرة والمنطق في مكابرة صارخة، ولو كان هناك تطورٌ حقاً - كما تقول هذه النظريات -، لكان من الطبيعي والمنطقي أن يكون هذا التطور من الوحدة إلى الكثرة؛ لأن الواقع يدل على ذلك، فأنت عندما تبدأ بالعدّ والحساب

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ٥٨/١.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٠.

(٤) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٦٥-٦٨.

التوحيد أساس دعوة جميع الرسل

إن الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقدير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله، وقد جاء ذلك واضحاً جلياً فيما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من دعوة الرسل إلى أمهم وأقوامهم^(١)، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل»^(٢).

ويلاحظ أن الجانب الأهم في دعوة الرسل عليهم السلام هو توحيد الله تعالى بالعبادة وإفراده بها، فلم يبعثهم الله لدعوة الناس إلى مجرد الإيمان بالله وأنه خالقهم، إذ هم مقرون بذلك تناسقاً مع الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، ولم تكن قضية وجود الله في يوم من الأيام هي القضية التي يقف الناس عندها، إلا في فترات قليلة، ولظروف خاصة عند بعض الأوروبيين الذين عرف عنهم الإلحاد، وحاولوا أن يجدوا له فلسفة خاصة؛ تبريراً لانحرافهم

وفساد فطرتهم^(٣).

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه - سبحانه وحده - خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فلما سواوا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقد علّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشرك في توحيد الإلهية، وأنه تعالى حقيق بإفراده ولياً وحكماً ورباً، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يَطَعُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنَاسَّةٍ وَلَا أَتَكُونَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٣٠٥.

(١) المصدر السابق ٦٩/١.

(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢١/١.

والرازق وحده.

ولقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكد بطريقتين:

الأول: الطريق الإجمالي.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهذا تعميم على سبيل الحصر، بأن كل رسول قد أوحى إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية، لا إله إلا الله، ومستحق للتوحيد، وذلك في قول الله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾؛ أي: أفردوني بالعبادة؛ لأنني متفرد بالالوهية.

وقال تعالى في هذا المعنى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. هذه الآية تقرر أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولاً، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة: أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، والطواغيت: كل ما يعبد من دون الله تعالى، وهو مشتق من الطغيان.

وننوه إلى أن هذا الطريق الإجمالي في إثبات القرآن الكريم أن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل، له صيغتان مختلفتان ومدلولهما واحد، ونمثّل لهما بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فلا ولي ولا حكم ولا رب إلا الله، الذي من عدل به غيره، فقد أشرك في ألوهيته -ولو وحد ربوبيته-، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشرّكين^(١).

ولذلك حكى الله تعالى عن الأقوام السابقين تعجبهم من دعوة الأنبياء إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

أي: لتفرد بالعبادة ونخصه بها من دون ألهتنا؟! فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواء واتخذوا معه أنداداً، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فأرسل الله الرسل تأمر بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقرّبي ص ٧-٨.

وقوله: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرِنتُهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

فإن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله، فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله، ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النصّ القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتف القرآن بالنهي الضمني المفهوم من الأمر الصريح - على ما هو مقرر في علم الأصول من: «أن الأمر بالشئ نهى عن ضده الذي لا يجتمع معه»، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيراً من الناس يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون^(١).

الثاني: الطريق التفصيلي الاستقرائي: هذا الطريق يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد رأس دعوتهم جميعاً، ومن ذلك:

١. ما جاء في قصة نوح عليه السلام وهو أول رسول من أولي العزم بعث إلى أهل الأرض. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٠٣.

٢. قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ونفس الألفاظ قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

٤. وهي الألفاظ التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

٥. أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى النبوة، وتحدث القرآن عن دعوة إبراهيم بشتى الصيغ والأساليب، في المواقف المتعددة والأحوال المختلفة، ولعل السر في توسيع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده صلى الله عليه وسلم وعلى الرسل أجمعين. وكان اليهود والنصارى والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وبذلك تقوم الحجة على المتتبعين إليه جميعاً الذين انحرفوا عن دين الحق، ووقفوا في دروب من الوثنية الطامسة

الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمدّه القرآن الكريم بآتم الحجج والبراهين، وسجّل أقاويل الكفار وردود الوحي عليها؛ حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة؛ لأن القرآن صوته الممدود ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريراً وإثباتاً، وردّاً على المشركين والملحدّين، وإبطالاً للشرك وكل دروب الوثنية والانحراف عن التوحيد. ويكفي مثلاً لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله -تعالى وحده-، من صفات الكمال: أحدية، استغناء، تنزيه له عن الشركاء والأشباه، ثم هي مصحّحة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد^(١).

الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم، كما قال تعالى ردّاً عليهم مجتمعين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦. وكذلك يقول القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وهو يدعو إلى وحدانية الله: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۝ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٣-١٤].

٧. وكذلك يخبر القرآن عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٨. ويخبر القرآن عن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد، لقد بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ١٣-١٦.

الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد

التوحيد هو إفراد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته جميعاً:

(التوحيد) يعني اتصاف الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، و(التوحيد) يعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمور الثلاثة، وهذه هي الحقيقة الشرعية للتوحيد: أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده الرب، صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك هو وحده الإله المستحق للعبادة والطاعة بلا شريك، وأنه لذلك هو الجدير وحده بالأسماء الحسنى والصفات العلا، فلا يصلح للمخلوق منها اسم ولا صفة، فإذا أقر العبد بأحد هذه الأركان الثلاثة فقط لم يكن موحدًا، وإنما يقال: هو مقرر أو معترف بأحدها، ولكن لا يصح أن يسمى موحدًا؛ لأن التوحيد هو مجموعها معًا.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم موحدون توحيد الربوبية، حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق، وإنما سماهم كفارًا مشركين.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٦﴾

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ٣٧ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿[يونس: ٣١-٣٤].

لقد سماهم القرآن كفارًا مشركين؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بوصفٍ منها، والتوحيد لا يقبل التجزئة أصلاً، فمن أشرك في وصفٍ فقد أشرك في الكل؛ لأنه لم يأت بحقيقة مسمى التوحيد الشرعي الجامعة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُشْرِكُ بِهِ وَيُغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ^(١).

الربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:

ولأجل هذا الترابط الوثيق بين وصفي الربوبية والألوهية، واتسلافهما في تكوين حقيقة التوحيد، نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كل لفظ مكان الآخر، أي: هناك تلازم بين الربوبية والألوهية، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر، باعتبارهما وصفين متفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله، فإذا ذكر الرب فهم منه استلزاماً أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر

(١) المصدر السابق ص ١٧-١٨.

باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى^(١).
ونضرب مثلاً آخر بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا
اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٣].

والمقام يقتضي أن يقول: اعبدوا الله
إلهي وإلهكم، لكن استعمل كلمة الرب
مكان الإله؛ للتلازم التام بين الكلمتين.
والحكمة هنا -والله أعلم- أن ذكر الرب
فيه تصريح بعلة العبادة، وهو ما يتضمنه لفظ
الرب من معاني الخلق والرزق... إلى آخره،
والمعنى: اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم
وتولاكم في سائر أموركم.

بل ما رأيك أن هذا الربط بين العبادة
وعلتها -وهي الربوبية وما تتضمنه من
المعاني- قد نطق به أول أمر في القرآن
الكريم!!

وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

فتأمل هاتين الآيتين العجبتين في
نظمهما، كيف أن الله تبارك وتعالى ذكر في
البداية: الأمر بعبادته، وفي النهاية: النهي
عن اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وما
بين البداية والنهاية: التعليل الصريح لذلك

الإله فهم منه استلزماً أنه الخالق الرازق
المالك؛ لأنه لا يكون إلهاً حقاً إلا بهذه
الصفات.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا
كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلِ
هْمُمْ قَوْمٍ يَعِدُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء
تتصل بالخلق والرزق والقدرة والتدبير،
وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى
لفظ الرب، فكان المقام يقتضي سؤالهم في
آخر الآية عن ذلك، فيقال: أرب مع الله؟،
لكن وقع السؤال بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ ۙ؟﴾؛
لأن اللفظين متلازمان، لا فرق بينهما من
حيث الواقع.

الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية
تستلزم الإلهية:

ويلاحظ أن استعمال كلمة (إله) هنا
في الآية السابقة قد جاء لحكمة عظيمة؛
لأنه جل وعلا قد سألهم عن محل النزاع
مباشرة، والمعنى: أرب يخلق ويرزق مع
الله فيستحق التأليه معه؟، ولما كان الخلق
والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما
النزاع في عبادة غير الله؛ لذلك عاجلهم

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد

جاءت أساليب القرآن في الدعوة إلى التوحيد على غاية التفنن والإبداع؛ تليقاً في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتالياً لقلوبهم، ولفناً لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب، ولا شك أن في هذا التنوع والتفنن ظهوراً فائقاً لسمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم. وتقريباً للوقوف على شيء من هذه الأساليب القرآنية الرفيعة نقسمها إلى ما يلي:

أولاً: أسلوب الخبر المجرد:

في كثير من الآيات القرآنية يقرر الله تبارك وتعالى حقائق التوحيد بأسلوب الخبر المجرد، تقريراً سهلاً مباشراً، ليس معزّراً بالتوكيدات، ولا مشفوعاً بالمحاورات والتشبيهات، وكأنّ الحق تبارك وتعالى يلقي هذه الحقائق الإيمانية والأصول التوحيدية إلى الفطرة النقية السوية، التي لا تعرف المكابرة ولا الالتواء، أو كأن القرآن الكريم يعرض بأولئك المشركين المعاندين، ويقول لهم بمفهوم الكلام دون منطوقه: إن حقائق التوحيد هي أوضح من الشمس، كيف لا والدلائل عليها تحاصرهم من كل جانب فطرة وحساً وعقلاً وشرعاً؟! فجدير إذا أن ينزل أولئك المعاندين المكابرين

بتفرده تعالى خلقاً ورزقاً وتدييراً للكون. ولتأمل أخيراً في سورة الناس، وكيف جاءت الاستعاذة فيها بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربّ، والملك، والإله، مبيّنة هذا التناسق والتوائك بين الربوبية والألوهية، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لما خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فأثبت الخلق والأمر ﴿إِلَهِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربّاً موجداً، وملكاً مكلفاً، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلف العابد إلّا له، فجاءت الإلهية خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها^(١).

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقريري ص ٩.

٣. التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعاً قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا ۝١﴾ **فَالزَّجَرِ زَجْرًا ۝٢﴾** **فَاللَّيْلِ ذِكْرًا ۝٣﴾** **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾** **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾** [الصافات: ١ - ٥].

٤. التأكيد بأساليب القصر.

كأسلوب النفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝١﴾ [النحل: ٢].

وأسلوب القصر بـ(إنما): ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ اللَّهِ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝١١﴾ [الأنعام: ١٩].

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاطحة: ٥].

فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله وحده، وأصل الجملة: نعبدك.

وكذلك أيضًا أسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى: ١٠].

فتعريف الخبر (ربِّي) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي: الربوبية مقصورة على الله تعالى (١).

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/٤٧٧.

منزلة الخالين من العناد والمكابرة؛ فيلقى إليهم الكلام أيضًا خبرًا مجردًا؛ لأن معهم من الأدلة ما يقطع كل شك، ويستدعي كل يقين.

والآيات التي نستطيع بها التمثيل لهذا الأسلوب كثيرة، وتكفي الإشارة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١﴾ [الفاطحة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝١﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٦﴾ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٧﴾** **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَأَتِ اللَّهُ أُولِيكُمُ الْخَسِرُونَ ۝١٨﴾** [الزمر: ٦٢-٦٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر المؤكد:

من أساليب القرآن الكريم (التوكيد)، وهو أسلوب قيمته البلاغية في تقوية الكلام ابتداءً، وإضفاء مزيد من الصرامة في تقريره وإثباته؛ ليكون أدعى لقبول السامع واقتناعه، أو في مجابهة المتلقي الجاحد المنكر بما يلقى بحاله من مضادة له ومدافعة، والمؤكدات التي جاء بها القرآن الكريم في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة ومتنوعة؛ ومنها:

١. التأكيد بـ(إن).

٢. التأكيد باللام (لام التقوية).

ثالثاً: الأساليب الإنشائية:

من أساليب القرآن الكريم أيضاً في تقرير التوحيد: أسلوب الطلب، كاستفهام التقريري أو الإنكاري، فهذا أسلوب قرآني عالٍ في نقاش المشركين، إنه يوالي عليهم الأسئلة ويترك لهم في كثير من الأحيان إجاباتها؛ ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويلزمهم الحجة، ويقودهم إلى الصواب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ لَّدُنْكُمْ قَالُوا بَلَىٰ لَّو كُنَّا نَعْلَمُ سُبْحَانَكَ يُسْـَٔرُكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ ۝ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ بِآبَائِكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۝ إِنْ يَبْهُوتُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

والمعنى: أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق، كالغول والعنقاء وغيرهما من الأشياء المتوهمة.

ولذلك يقول القرآن الكريم متحدياً المشركين: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظْهَرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِّلْإِنِّ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم، وإنما عبدوها بظنون من القول وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى مندداً بالمشركين، الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنبِّئُوكُم أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومن ذلك أيضاً: الأسلوب التلقيني، فيستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب في تلقين الجواب الظاهر، حيث إنه لوضوحه لا ينكره المشركون، بل يسلمون به، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُم مِّن ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجِئْنَا بِهَؤُلَاءِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٣] قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

وفي ذات الآية: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

ففي هذه الآيات: يأمر الله نبيه صلى

﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنُجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْفَٰظِلِينَ ﴿٢٩﴾ [الأنبياء ٢٦ - ٢٩].

وعلى هذا النسق نفسه جرى في الرد على من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه، إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ ۚ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ ثَلُثَةً فَفَقَدْ عَلِمْتُمْ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا إِلَٰهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣٢﴾ [المائدة ١١٦ - ١١٧].^(١)

رابعاً: أسلوب ضرب المثل:

كذلك أسلوب الأمثال، وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة، عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ولقد مدح الله جل وعلا كتابه باشتماله على

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٣٤٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٧.

الله عليه وسلم أن يسألهم عن ينجيهم من المخاطر، ومن رب السماوات والأرض، ومن يرزقهم، ويأمره بأن يجيب: «الله»؛ لاعترافهم أن آلهتهم لا تملك شيئاً من ذلك، وتلقيهم الجواب فيه إشارة إلى أنهم لا ينكرون ذلك، وليس عندهم جواب غيره، وأن سكوتهم عن الجواب لوضوحه فيه حجة عليهم؛ إذ إنهم ما داموا قد اعترفوا بأن فاعل ذلك هو الله، فلم يشركوا به غيره؟ ومثل هذا الأسلوب يعجز الخلق كلهم عن الإتيان بمثله.

ومما يلتحق بهذا الأسلوب التلقيني: الجواب المباشر من الله تعالى على السنة خلقه من الملائكة أو الأنبياء وهم يدفعون عنهم دعاوى الألوهية والنبوة لله، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، ولن يجروا واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى؛ فجزاؤه جهنم؛ لأنه ظالم مبين، وهل هناك أقوى في هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد أنفسهم الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، ومن جراءة منهم على دعوى الألوهية، كان جزاؤه عذاب جهنم خالداً فيها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ۚ سُبْحٰنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْتَفِئُونَہٗ بِالْقَوْلِ ۖ وَهُمْ بِأَمْرِہٖ يَعْمَلُونَ

أسلوب الأمثال فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَيَتُّ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

فقد ضرب الله تعالى مثلاً للذين يستنصرون بالكعبة غير الله، صورهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكانهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات، ويعبت به الصبيان، فلا يغني عن أهله شيئاً.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذان مثالان للمشارك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبداً، كما لا يستوي عبد مملوك يسومه سادته لسوء أخلاقهم سوء العذاب، وعبد مملوك لمالكٍ واحدٍ لطيفٍ لا يشق

عليه بكثرة الأوامر، واختلاف المذاهب والمشارب.

ويضرب الله الأمثال مينا ضياع أعمال المشركين، وهو بهذه التشبيهات البليغة يدعوهم إلى التفكر في العاقبة الخاسرة لأعمالهم - مهما كانت صالحة - ما دامت غير نابعة من إيمانهم وتوحيدهم لله.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعَلُ بِحَسَبِهِ وَاللَّهُ سَرِيعٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣١) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَو يَكْدِرُهَا وَمَنْ لَوْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ويضرب الله المثل بالمشركين أنفسهم، وما يعانونه من اضطراب العقيدة وفساد التصور، وما ينشأ عن ذلك من حيرة القلب، وقلق الضمير.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ

٤١-٤٢] إلى آخر الآيات المتضمنة لهذه المحاور.

فالآيات الكريمة تورد حوارًا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئاً؟! هو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله وحده بالعبادة، فهو السميع البصير الغني المغني عز وجل^(٢).

وكتلك المحاور بين الرجلين المؤمن والكافر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنُكَفِّرَنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ففي هذه المحاور يصور الله جل وعلا مشهد الرجل الكافر بإزاء متجبري قریش أو بني تميم، ومشهد الرجل المؤمن المقر بالربوبية الذي هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم، وكيف أن الرجل المؤمن الذي خالطت قلبه بشاشة التوحيد؛ قد علم ما يجب عليه من شكر خالقه ورازقه.

وكتلك المحاور الحادة يوم القيامة بين

إِبْرَاهِيمَ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّتُسَلِّمَ لِرَبِّ الْمَلَكِيَّةِ ﴿٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

وحينما يصورهم هلكى في أشد صور الهلاك وأفتكها، إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١]. وضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لقلب المؤمن الموحد بالبلد الطيب، ومثلاً لقلب المشرك الكافر الذي لا يثبت فيه توحيد ولا إيمان بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]^(١).

خامساً: أسلوب المحاور:

كذلك استخدم القرآن أيضًا أسلوب المحاور، وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر؛ فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد، والمحاورات في القرآن كثيرة، كمحاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢﴾ [مريم: ١-٢].

(١) انظر: من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٧٧.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٧.

الأدلة القرآنية على صحة التوحيد

لقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوجدانية، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية، ولم يترك القرآن الكريم دليلاً يصلح لخطاب البشر إلا أوردته على أتم الوجوه؛ حتى لا نقول: إنه لم يسق الدليل على صحة الوجدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصلوها - ولو إجمالاً -؛ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار؛ ولذلك نوع الأدلة في هذا تنوعاً عجيباً؛ حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم^(٢).

أولاً: الأدلة الوجدانية:

المقصود بالأدلة الوجدانية، أي: النفسية أو الداخلية، هي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوجدانية من داخل الإنسان، لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ نَوْمٍ لَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا بَتُّوهُ
فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٢﴾ [البروج: ١-٢]

لقد بين الله سبب قتلهم لهؤلاء المؤمنين وهو إيمانهم بالله العزيز الحميد، وعدم إيمانهم بالكفر والوثنية اليهودية وعقائدها المزيفة، والعبرة هنا موجهة بخاصة للكفار من أهل مكة، في هذه القصة القرية العهد منهم، إما أن يكفوا عن إيذاء محمد وأصحابه المؤمنين الموحدين، ويدخلوا في دينه؛ فيكون لكم جنات تجري من تحتها الأنهار، وإما أن يستمروا على إيذائهم الموحدين من المؤمنين والسخرية بهم، كما صنع ذو نواس بالموحدين، فعندئذ يدخلون مع اليهود في اللعنة والغضب، والوعيد الشديد بعذاب جهنم وعذاب الحريق^(١).

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٨-٢٩.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٢٩.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات؛ حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعاً؛ فتمتلئ نفسه يقيناً لا يتسرب إليه ريب ولا قلق، وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام وفنون الإحصاء، وامتلأ عقله بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلد الإحساس، والسبب في ذلك تعطل وجدانه الداخلي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات؛ تذكيراً للناس بهذا الجانب الفذ، الذي أهملوه وعطلوه وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات، التي رانت على قلوبهم؛ فأظلمتها وأماستها.

ونجتزئ بهذه الإشارة إلى دليل الفطرة، فقد تقدم له فيما سبق مزيد شرح واستفاضة.

ثانياً: الأدلة الكونية الحسية، والتذكير بنعم الله فيها:

آيات الله جل وعلا وعجائبه في خلقه كثيرة وعظيمة، وآتى التفت الإنسان ببصره وجد دليل وحدانية الله تعالى ماثلاً أمامه، وإذا مني الإنسان لسبب أو آخر بجفاف الفطرة وضمورها، فلم يعد صوتها المنادي له بالتوحيد يصل إلى آذان قلبه، فإن القرآن

الكريم يرشد الإنسان إلى أدوات أخرى قد تسعفه وتنقذه من ورطة الغي والضلال، لقد زود الله الإنسان بمداركه وقواه الحسية من سمع وبصر وذوق وشم ولمس، حواسً يكتشف بها العالم من حوله، ويقف بها على عجائب مصنوعات الله، فلعل في ذلك ما يأخذ بناصيته إلى معارج التوحيد، ويرحم أقدامه من مواطئ الشرك والكفران.

والقرآن الكريم إذ يذكر الإنسان بهذه الأدلة الكونية الحسية على وحدانية الله تعالى، فإنه كثيراً ما يسلك - من أجل هذا التذكير والتقريب - سبيل الامتنان بها كنعم وعطايا حبا الله الإنسان بها، فلولاها لم يكن لهذا الإنسان من وجود ولا ذكر، فهي إذاً آيات كبرى تحيط بالإنسان، ونعم عظيمة تستوعب تفاصيل حياته، فكيف له بعد ذلك أن يعمر عن توحيد الله واستحقاقه للعبادة؟

وهذا المنهج القرآني لم نتفطن إليه بالتأمل والتدبر، بل إن القرآن الكريم هو من يشرح بنفسه منهجه هذا، وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَلَّلَ لَيْلَ الْآيَاتِ وَانْتَهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرِيحًا إِلَى يَوْمِ الْبَيْتَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَصِيرَتُهُ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ

اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله بكم، وحجة منه عليكم؛ فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك... فعل ذلك بكم؛ لتفردوه بالشكر، وتخلصوا له الحمد؛ لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك؛ فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه»^(٢).

وفي آية سورة غافر يقول تعالى بعد ذكر نعمته على الناس: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١١) ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ، فأخبر

تعالى أن أكثر الناس لا يقومون بشكر نعم الله عليهم والاعتراف بوحدانيته، الذي هو المقصود الأعظم من التذكير بالنعم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء وأنعم بها هو الله الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فكيف تعبدون الأصنام التي لا تنعم عليكم؟!^(٣).

وما من مجال هنا لاستقصاء جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية، ولا كل ما ورد فيه من نعم امتن الله بها على الإنسان، وإنما الغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات والنعم، فنكتفي بما يدل

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٦١٣.

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٦.

أَرَهُ يَتَرَى إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ يَلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [القصص: ٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١١) ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ [غافر: ٦١-٦٢].

إن الله جل وعلا يربط ربطاً أكيداً في هذه الآيات بين توجيه النظر إلى التأمل في هذه الآيات الكبيرة، وبين الامتنان بما فيها من النعم العظيمة، وبين دلالتها المفترضة ونتيجتها المتوقعة في توحيد الناس العبادة لله وقيامهم بالشكر له، أو ليس في الليل السرمد والنهار السرمد ما يبعث الخوف في النفس، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفه؟!^(١).

ولذلك فقد قال تعالى في آية سورة القصص: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يرجى ويتوقع منكم أن تشكروا الله على مخالفته بين الليل والنهار؛ فتوحدوه وتعبدوه.

يقول الطبري: «أفلا ترون بأبصاركم

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠.

على المقصود.

الصورة الأولى: آيات الأرض والسماء والجبال.

إن الله جل وعلا ليضع الإنسان أمام حقيقة يسيرة ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

بل إنه يسأله سؤالاً فيه إدلال بالتحدي: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَتْهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

إن كان الإنسان مغترًا بخلقه اغترارًا؛ أغراه بالجحود والنكران لخالقه أن يشكره ويعبده، فهذه الآيات العظيمة في خلق الأرض والسماء تعرف الإنسان بحجمه الحقيقي في هذا الكون، وتنبيهه إلى أن الذي خلقها وأبدعها ليس بعاجز عن إحياء الموتى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِيرُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ومن كان هذا خلقه؛ فهو متعالٍ عن الشريك، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فأني يكون له شريك، وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد؟! (١).

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير: «وهذه الآية دالة على توحيدة تعالى بالعبادة وحده لا شريك له» (٢).

وقال الزمخشري: «أي: هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية؛ فلا تتخذوا له شركاء» (٣).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُكْكِ الَّذِي يَجْرِي فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤].

قال الطبري: «وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم، ودعاء منه لهم إلى الأوبة من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرفهم تعالى ذكره بالآية

ملكاوي ص ١٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧.

(٣) الكشف، الزمخشري ١/ ٩٥.

الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِ
الْشُّورُ ﴿١٥﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ
الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكَ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾
أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦].

إن الله سبحانه وتعالى يذكر عباده بنعمة
الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهدة
وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا؛
للاستفادة من خيراتها، ولولا تذليل الله
لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء
عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع،
والتي منها أن الأموات يكفون في بطنها،
فهي تكن الأحياء على ظهرها في المساكن
والأموات في القبور، فكانها كفت أذى
الناس أحياء، وجيفهم أمواتاً^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى
أَنْ يَبِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَطَلَعَتْ
نَهْدُونَ ﴿١٥﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ
يَبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوًى شَنِخْتٍ
وَأَسْفَيْنَا مَاءَ فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

التي تتلوها موضع استدلال ذوي الأبواب
منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده
وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال
تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو
شككتكم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من
أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من
الأنداد والأوثان؛ فتدبروا حججي وفكروا
فيها، فإن من حججي خلق السماوات
والأرض^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾
[الأعراف: ١٠].

يقول الطبري: «ولقد وطناكم أيها الناس
في الأرض، وجعلناها لكم قراراً تستقرون
فيها، ومهاذا تمتهدونها، وفراشاً تفتشونها،
﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ تعيشون بها
أيام حياتكم من مطاعم ومشارب؛ نعمة
مني عليكم، وإحساناً مني إليكم ﴿قَلِيلًا مَا
تَشْكُرُونَ﴾ وأنتم قليل شكركم على هذه
النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري
واتخاذكم إلهاً سواي^(٢).

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد
ملاوي ص ٢٣٨.

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٦٧.
(٢) المصدر السابق ١٢/ ٣١٥.

الصورة الثانية: آيات الشمس والقمر والليل والنهار.

ويحدثنا القرآن الكريم أيضًا عن نعمة تبادل الليل والنهار، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون، وعن الشمس والقمر يجريان في دقة ونظام؛ فيحسب الناس بهما حياتهم، وينظمون أعمالهم، وعن النجوم في السماء تزينها كمصابيح، ويهتدي بها السائر في ظلمات البر والبحر.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦].

في هاتين الآيتين تنبيه على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، والمتدبر لذلك يعلم حقيقة الوجدانية، قال الطبري: «لقوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله، وصحة ما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان»^(٣).

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورتها، أو

هذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبت الأرض بالجبال؛ حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم؛ لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًا وبحرًا إذا ضلوا الطريق؛ فإنها متنوعة الأشكال والألوان، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

هذه الآيات الكبرى والنعم العظيمة في الأرض والجبال، توجب على العباد شكر المنعم وتوحيده وعبادته دون الآلهة والأوثان؛ لأنه هو الذي خلقهم، وخلق هذه النعم، فيكون هو وحده المستحق عليهم الطاعة والشكر والعبادة، وقد استعمل موسى عليه السلام هذا الدليل في الدعوة لتوحيد الله فقال لفرعون وقومه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].^(١)

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: لدلالات وحججًا وبراهين لأولي النهي، أي: لذوي العقول السليمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه»^(٢).

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي؛ نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

فهذه نعمة أخرى تتعلق بنعمة الشمس، وهي نعمة الظل، وقد نبه سبحانه وتعالى عباده لهذه النعمة؛ لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها؛ مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم؛ لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل، ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبه على ما تتم به فائدة الظل هو قبضه تدريجيًا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله؛ لأن في مده وتحوله من مكان إلى مكان، ثم

حبس الليل والنهار عن جزء من الأرض؛ لأن الله وحده هو الذي يتولى ذلك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١١) ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: ٦١ - ٦٢].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل؛ لأنني أنا الحق الذي لا مثل لي، ولا شريك، ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلها من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء، بل هو المصنوع»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قدير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٢.

(١) المصدر السابق ١٨/ ٦٧٦.

قبضه شيئاً فشيئاً من المصالح والمنافع مما لا يحصى، ويسكونه دائماً أو قبضه دفعة واحدة تتعطل المرافق والمصالح^(١).

وقال تعالى عن النجوم: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وأقسم به: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].
وتمدح الله جل وعلا فقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

بل أقسم بمواقع النجوم في السماء: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦].

ولقبها بمصابيح السماء وبروجها: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ۖ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٧].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وأقسم بها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وأقسم بأحد نجومها واستعجب منه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ - ٣].

أليس في هذه النجوم -وأصغرها قد يفوق شمس الدنيا حجماً بمرات ومرات- ما يدعو إلى توحيد الله؟!.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٤.

لقد أفحم القرآن بهذه الآيات المربوبة المسخرة من ادعى الألوهية من البشر إfachاماً لا مخلص له منه، وذلك في الحديث الذي دار بين إبراهيم وهذا الملك، الذي ادعى أنه إله، إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِينَ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِمَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] (٢).

الصورة الثالثة: آيات ونعم الرياح والسحاب والمطر والنبات.

الرياح آية كبرى ونعمة عظيمة، يقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَآفِئَتِنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَادِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا نَقَالَ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَيْسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨].

يقول ابن القيم: «إذا شاء الله حركه بحركة الرحمة؛ فجعله رخاء ورحمة

(٢) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٣.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا شُكْرُكُمْ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

إن المطر نعمة عظيمة من الله على عباده؛ لأن حياة الحيوان والنبات متوقفة على الماء، والله وحده هو الذي ينزل علينا الماء من السحاب عذبًا فرائًا، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، ثم يسكنه في الأرض؛ فيخرج ينابيع ويجري أنهارًا؛ لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار في الجنات.

فانظر كيف تتجلى النعمة العظمى بإنزال المطر بالقدر المطلوب، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، وكيف جعل في الأرض قابلية خزنه للاستفادة منه فيما بعد، ولو شاء الله أن لا تمطر السماء لفعل، ولو شاء جعله أجاجًا لفعل، ولو شاء ذهابه في أعماق الأرض بحيث لا ينال لفعل، فامتن الله على عباده إذن بكل هذه النعم؛ منبها إياهم لوجوب شكره.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴿٩٥﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٥].

يقول الطبري: «وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ

وبشرى بين يدي رحمته، ولا قحًا للسحاب يلقيه بحمل الماء، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح؛ فتثيره كسفًا، ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها - سبحانه - لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها؛ أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه الرياح وهو في العجو، فتدروه وتفرقه؛ لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه؛ ألق عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح»^(١).

ويقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبْنَا ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٨ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿١٨﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْمًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسٍ كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢٠٢/١.

ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله، الذي فلق الحب، يعني: شق الحب من كل ما ينبت من النبات؛ فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة؛ فأخرج منه الشجر»^(١).

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ أَلْتِخِلِ مِنْ طَلْمِهَا قَتَوَاتٍ دَانِيَةً وَجَدْتِ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إن التفكير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعًا أخضر وثمرًا طيبًا بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها - مع كونها متشابهة في الشكل والورق -، لا شك يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته؛ ولذلك حث الله على النظر للثمار فقال: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ﴾ فهي تدل دلالة واضحة على وحدانية الله؛ لذلك ذم الله تعالى المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١٠٠).

بَيِّعُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَنِيعَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٢].

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يا أيها الناس، إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهاهه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه؛ علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء»^(٢).

إن العبد يشق الأرض ويضع فيها الحب، والزارع المنبت هو الله، دون الأنداد والأوثان، ولو شاء الله أن يجعل هذا الزرع حطامًا يابسًا قبل موعد حصاده ما استطاع أحد إنباته، وأقصى ما يعمل الإنسان هو التعجب والتفجع والحزن على ما فاتته من الزرع والثمر، وإن الله تعالى ليضع الإنسان أمام عجزه وضعفه في أسلوب من الاستفهام المثير فيقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(١٠١) أَأَنْتَ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٠٢﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٠.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٨٢ - ٥٨٣.

وعجيب صنعه فيها بالغ، وليس أدل على ذلك من أن الله تبارك وتعالى قد قرنها بآيات السماء والأرض والجبال في سياق، بل وابتدأ بها في توبيخ المشركين الغافلين عن النظر إليها نظر الاعتبار والافتكار، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ولا شك أن للأنعام في حياة العرب بالبادية ما يستحق أن يذكروا به، وأن يسجل فضله عليهم بها، فكانت الإبل دليلاً قريباً ينبغي أن توجه أنظارهم إليه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ إِلَّا بِيْشِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْحَمِيرَ لِرِكْبَتِهَا زِينَةٌ وَخَلْقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٦-٨].

النعمة الأولى في الأنعام هي نعمة تذليلها؛ لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة، لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطرق، أو للحمل، أو للوقوف، ويرتبط

سجودهم للشمس من دون الله، مستدلاً على وحدانية الله ووجوب إفراجه بالعبادة؛ بأنه خلق الماء والنبات، وأخرجه بعد أن كان مخبوءاً في السماء والأرض، وجعل ذلك حجة على المخالفين، حيث قال تعالى عنه: ﴿الْأَيْسَجِدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦].

ومن مجموع هذه النعم من رياح وسحاب ومطر ونبات؛ يمتن الله جل وعلا على عباده بالرزق؛ فهو الذي يرزقهم، ويرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تكفل برزق نفسها.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يَمُنَ دَابَّةٌ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

ويستري انتباههم إلى طعامهم الذي هو من فيض فضله، فيقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٥) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٦) ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا (٢٧) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٨) وَعَبَا وَقَضَا (٢٩) وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا (٣٠) وَحَدَائِقَ غُلَابًا (٣١) وَفَيْكَةً (٣٢) مَتْنَعًا لِّكُلٍّ وَلَا تَفْخَمْكُمُ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢] (١).

الصورة الرابعة: الآيات والنعم في الأنعام.

آية الله جل وعلا في الأنعام عظيمة، (١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦.

بتذليلها كونها جمالاً وزينة لنا في رجوعها من المرعى عشياً؛ فتكون شبعانة وخواصرها مليئة، وفي بعثها صباحاً إلى المرعى، ولولا تذليلها ما كانت زينة وجمالاً؛ لأنها تكون نافرة مستعصية.

وقال تعالى: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

إن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تلفت النظر وتوجب الشكر؛ لأنها توفر كثيراً من الجهد والتعب، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة؛ لأن هذه الأنعام تحمله، وتحمل متاعه وطعامه وشرابه، وبدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجز عن ذلك، وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل خاص في الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت معاً في آية خاصة بها فقال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ۙ أَفَلَا تَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛

لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية، وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصاً بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة؟!

فإذا نضج ذهب أقساماً للدم والعظم واللحم، وقسم يصير لبناً، والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به؛ فيخرج اللبن خالصاً سائغاً للشاربين لا يخصص به أحد.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].
هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم، فهي كذلك يؤكل لحمها، وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوباً كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة^(١).

إن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله، والاعتراف بوحدانيته، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة؛ لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٨-٢٥١.

الصورة الخامسة: نعمة البيوت وآيتها.

ويوجه القرآن الكريم أنظار البشر إلى النعمة الكبرى التي أودعها قلوبهم، وهي نعمة الهدوء والسكينة، يحسون بها عند ما يعودون إلى بيوتهم، مكدودين منهوكي القوى، وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل في الظعن والإقامة، وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها، وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار، وإن للشمس وحرارتها لوقعا مؤلما في النفوس وعلى الأجسام، ومن أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب، تقي صاحبها الحر، وبها تتم نعمة الله، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ يَبُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا لَكُمْ حِينَ ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ عَلَيْكَ ۞ الْبَلْعُ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞﴾ [النحل ٨٠ - ٨١] (٣).

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِنْ رِزْقِكُمْ اللَّهُ وَلَا تَلْعَبُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وكذلك بعد ذكر نعمة الأنعام في سورة النحل يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ۞ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۞﴾ [النحل: ٨١ - ٨٣].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآيات في سورة النحل: «وإن الله جل ثناؤه إنما عرف عباده بهذه الآية وسائر ما في أوائل هذه السورة نعمته عليهم، ونبههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخطأ فعل من يشرك به من أهل الشرك» (١).

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى في سورة يس بعد ذكر نعمة الأنعام: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞﴾، قال: «أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟» (٢).

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/١٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٥٩٢.

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٤.

الصورة السادسة: آية ونعمة الأزواج.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر أيضًا إلى ما في خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، وتجد في ظلها الرحمة والمودة، فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

إن التفكير في احتياج الكائنات وافتقارها إلى الزوجية، ووجودها بهذه الثنائية «الذكر والأنثى»، لأمر يدفع إلى تسييح وتقديس الإله العظيم ذي الوحداية، الذي لم تكن له صاحبة، إنها آية عظيمة تدعو إلى تذّكر التوحيد.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَقَرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥١].

ختامًا: فإن في إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم، وتوجيه أنظارهم إليها، وتقديرهم بها، ما يدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه جدير بالعبادة، ولا سيما أن تلك النعم ليست في طاقة بشر، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العليّ القدير، وهكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها إلى الإيمان بالله

وإجلاله وتقديسه، وإلى عبادته عبادةً منبعثة عن حبه وشكر أياديهِ (١).

ثالثًا: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية وفكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها، حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحسّ ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعًا إلى العقل (٢).

فهذا تنبيه إلى أن أدلة القرآن كلها سمعية عقلية، سمعية؛ لورودها في القرآن، وعقلية؛ لأن للعقل قدرة على التفكير فيها، والنظر والاعتبار إذا سلك المسلك الصحيح (٣).

ولكننا نتوسع هنا بذكر بعض الأدلة التي لم تندرج تحت ما سبق ذكره من أدلة توحيد الله، وأيضًا قد لوحظ فيها عناية القرآن بنظمها بأسلوبٍ جدليٍّ مرتّبٍ مقصودٍ للمناظرة والمحااجة ابتداءً، وهذا أسلوب يختلف قليلًا عن أسلوب الشواهد القرآنية السابقة في أدلة الآيات الكونية، فالأسلوب هناك سمته الأوضح هي السرد والحشد للصور والمشاهد، ويأتي التدليل والتعليل للوحداية في ركاب السياق والسباق.

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٦.

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

خلق كل شيء، فليس ما يزعمونه ولدًا سوى خلق ممن خلق: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَرْجَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، ولم يحتاج إليه، وله ما في السموات وما في الأرض.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أُنْزِلُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلُمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩].

ويعجب القرآن: كيف يتوهم للمشركون أن يخصصوا أنفسهم بالبنين، ويجعلوا البنات لله؟! فيقول: ﴿أَفَأَصْفَقُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الاسراء: ٤٠].

ويصور القرآن -في أقوى صور التعبير- موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله، فتكاد -لشدة غضبها- أن تنفجر غيظًا، وتنشق ثورة، وتخرّ الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب.

وأصغ إلى تصوير هذا الغضب في قوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ

وقد استخرج العلماء من الأدلة العقلية القرآنية لتقرير التوحيد أنواعًا.

١. الدليل البدهي.

هو دليل (بدهي) لأنه يقوم على استخدام الحقائق المشهورة والبدهيّات المستقرة، في ابتناء الدليل عليها، فيدعن الخصم للدليل إذعانًا إن كان منصفًا.

وهو دليل الخلق والملك؛ لأنه مبني على أصليين:

أن الموجودات مخترعة.

❖ وأن كل مخترع لابد له من مخترع ومالك^(١).

ونأخذ لهذا الدليل أمثلة من آيات القرآن الكريم في نفي الولد عن الله.

ف نجد القرآن الكريم قد حدثنا في صراحة عن أن الله جل وعلا ليس في حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من في الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعي.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿٣٣﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

وحينًا يدفع ذلك دفعًا طبيعيًا: بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلده، أما وقد

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٧.

دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

فهذا الدليل (دليل الخلق والملك) دليل عقلي يتكامل مع الأدلة الحسية الكونية السابقة، فمتى تدبر الإنسان تلك الآيات والشواهد؛ استنتج منها: أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لا بد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من غير خالق، والخالق يجب أن يكون ممتازاً عن المخلوق بكل وجه، وإلا لما كان بينهما فرق.

٢. دليل التمانع.

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية؛ ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزائه -بحيث يكمل بعضها بعضاً-، وقدر كل شيء فيه تقديراً، هو الله الواحد الأحد، ويمتنع أن يكون له تعالى أي شريك في ألوهيته أو ربوبيته؛ لأن ذلك سيفضي حتماً إلى الخلل والفساد.

ومن الآيات التي قرر القرآن فيها هذا الدليل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢٢].

وتوضيح الآية الكريمة أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦-١٩٧.

على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما؛ وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحيثُذ إما أن تنفذ إرادتهما معاً، فيتناقض النظام لاجتماع الضدين، وإما ألا تنفذ إرادتهما معاً؛ فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما؛ فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً؛ فبطل ما أدى إليه، وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه، وهو الوحدانية (٢).

٣. دليل الفرض والتسليم.

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على التسليم بدعوى الخصم تسليماً جدياً -ولو كانت دعواه مستحيلة-، ثم يستدل على إبطال الدعوى بالتأنيخ الخاطئة المتناقضة التي تترتب على هذه الدعوى.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالحقيقة أن لا إله إلا الله، ولم يتخذ الله سبحانه وتعالى ولداً، ولكننا لو سلمنا جدلاً بهذا الافتراض الخاطيء فما هي النتائج التي تترتب على ذلك: يترتب على ذلك استعلاء بعضهم على بعض؛ فلا ينتظم أمر الكون، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تتحقق مصلحة،

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرد ظنون فاسدة.

قال تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لقد وجه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم؛ فإن لعابديها أرجلاً يمشون بها، وأعيناً يبصرون بها، وأذاناً يسمعون بها، أما هذه الأوثان فجائمة، لا تستطيع الحركة والانتقال، ولا تستطيع البطش والدفاع، ولا تبصر، ولا تسمع، ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاكِهَةً كَمَا آتَيْتَ آبَاءَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا أَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، ومن يراه عاجزاً لا يستطيع شيئاً؟ ولم يعبد المرء إلهاً لا يسمع دعاءه، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به.

قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الأنعام: ٥٦].

وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من

ومن ثم ففي ذلك اختلال نظام المخلوقات واستحالة استمراره.

والواقع المشاهد خلاف ذلك؛ فدل هذا الواقع على أن تعدد الآلهة محال لما يلزم عليه من المحال، كما أن افتراض وجود آلهة متعددة يؤدي إلى استعلاء بعضهم على بعض، ومنع كل منهم غيره من التدخل في شؤونه، وهو محال مصادم لما تستلزمه صفات الكمال المطلق للآله المعبود بحق.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُدْعَوْنَ إِلَى زِينَةِ السَّبِيلِ ۖ سُبُحَّتُ لِلَّهِ تَمَجُّدًا﴾ [الأنعام: ١٦].

٤. الشرك ظنون وأوهام.

في ختام هذه الاستدلالات على صحة التوحيد، يبرز القرآن العظيم وجهاً آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحداهم أن يقيموا دليلاً واحداً من أي نوع على صحة عقيدتهم، فلا يستطيعون، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم، كما قال عنهم القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولما كانوا عاجزين عن إثبات ذلك، بين

(١) مباحث من التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٥٣ - ١٥٤.

النصر، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله، ويطلب منه المعونة والمساعدة، فماذا يصنع بعبادة إله لا يمدده بهما؟ بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمي نفسها، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وأي ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر والنفع؟ وماذا بقي لهم من صفات الآلهة؟!، أخلقوا شيئاً في السماوات والأرض؟ أبأيديهم الموت والحياة والبعث؟ لا: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والقرآن يمضي في التحدي، مؤكداً لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، ولو ظاهر بعضهم بعضاً، برغم حقارة الذباب وضعفه، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه، إن سلبهم إياه، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاذْهَبُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وإذا كانوا لم يخلقوا شيئاً، فهل يملكون من شيء في السماء أو الأرض؟ لا،

إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٢].

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً، ولا تخلق شيئاً، وليس بيدها حياة ولا موت، بل هي أقل من عابديها قدراً، فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، ولا يعدو الأمر بعدئذ: أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهة حقيقية لها ما للآلهة من سلطان وقوة، وتستحق العبادة رغبة أو رهبة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١١ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝١٢ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝١٣ تِلْكَ إِذْ قَسَمَ لَبِذَىٰ ۝١٤ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا آتَمَّ وَابَاؤُكُمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

وها هو ذا يتحكم بهم تهكماً لا دعاً عندما منحوا هذه الأسماء التي لا حقيقة لها صفة الشفعاء؛ فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ يَمُنَ لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

والقرآن يثير في نفوسهم الخوف والفرع من سوء المصير، حين يصور لهم يوم القيامة، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عندما يرون هذه الآلهة التي اتخذوها؛ ليعتروا بها، قد أنكرت أن تكون أهلاً

لعبادتهم، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا
 عقلاء في هذه العبادة، فيقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا
 سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾
 [مريم: ٨١-٨٢]^(١).

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، الإيمان، الدعوة، الشرك

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٥٥-
 ٢٥٧.

